

التشاكل والتباين بين أصول المصطلح ومتطلبات الإجراء عند عبد الملك مرتاض

The similarity between the origins of the term and the requirements of the procedure according to Abdul Malik Murtaza

إيناس حجام *

أحمد جاب الله

جامعة باتنة-1

جامعة باتنة-1

مخبر أبحاث في التراث الفكري والأدبي بالجزائر

iness.hadjem@univ-batna.dzahmed.djaballah@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2025-08-18

تاريخ القبول: 2025-12-01

ملخص:

يحاول المقال الإحاطة بأحد أبرز المصطلحات النقدية تنظيرا وتطبيقا عند عبد الملك مرتاض والمتمثل في مصطلح _ التشاكل والتباين _ ، بوصفهما أداة إجرائية فاعلة عند صاحب التجربة النقدية الفذة، والفريدة من نوعها في الساحة النقدية الجزائرية، وصاحب التجربة الرائدة والمميزة في التعامل مع المنهج النقدي بشكل عام، والمنهج السيميائي بشكل خاص.

كشفت نتائج الدراسة عن تداخل عميق بين مستويات التشاكل الصوتي والمعجمي والتركيبية والدلالي، مما يجعلها تعبيرًا عن رؤية تأويلية متعددة، تختلف باختلاف السياق والخطاب.

الكلمات المفتاحية: مصطلحات نقدية؛ تنظير؛ تطبيق؛ تشاكل؛ تباين.

Abstract:

This article attempts to address one of the most prominent critical terms, both theoretically and practically, employed by Abdelmalek Mortad, namely "conformity and contrast", as this term serves as an effective procedural tool for this distinguished and unique critical expert in the Algerian literary arena, and a pioneer and distinguished expert in dealing with critical approaches in general, and semiotic approaches in particular.

The results of the study reveal a profound overlap between the levels of phonetic, lexical, syntactic, and semantic conformity, making them an expression of multiple interpretive visions that vary depending on the context and discourse.

مقدمة:

شكّل المنهج السيميائي منعطفاً حاسماً في المشهد النقدي الجزائري المعاصر، حيث تميّز بقدرته الفائقة على مقارنة النصوص الأدبية عبر آليات علمية دقيقة، تتيح الكشف عن الأنظمة الدلالية الكامنة في الخطاب الأدبي، وقد حظي هذا المنهج باهتمام بالغ من قبل النقاد الجزائريين، متفوقاً في ذلك على غيره من المناهج النقدية، وذلك لما يوفره من أدوات تحليلية تسمح بمقاربة النص من زوايا متعددة، تبدأ من المستوى السطحي للعلامات اللغوية وصولاً إلى الطبقات العميقة للدلالة.

في هذا السياق، يبرز اسم الناقد عبد المالك مرتاض كأحد أبرز الرواد الذين أسهموا في ترسيخ السيميائيات في الجزائر، حيث قدّم إسهامات نظرية وتطبيقية غنية، تجلّت في سلسلة من الدراسات الرصينة التي اتخذت من النص الشعري مادةً للتحليل. ومن بين هذه الدراسات نذكر تحليله السيميائي التفكيكي لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة، الذي مثّل نقلة نوعية في التعامل مع النص الشعري الجزائري، كما تواصلت عطاءاته النقدية عبر مؤلفات أخرى مثل "شعرية القصيدة-قصيدة القراءة: تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية"، التي أظهرت عمقاً في التعامل مع البنى الشعرية من منظور سيميائي.¹

ضمن هذا الإطار النظري والتطبيقي الغني، تبرز ثنائية "التشاكل والتباين" كأحد أهم المفاهيم الإجرائية التي اعتمدها مرتاض في مقارباته النقدية. فهذه الثنائية تمثل أداة تحليلية دقيقة تتيح تفكيك النص الشعري وكشف آليات اشتغاله الدلالية، إذ يعمل التشاكل على إبراز أوجه التقارب والتماثل بين العناصر النصية، بينما يكشف التباين عن نقاط الاختلاف والانزياح، مما ينتج شبكة معقدة من العلاقات الدلالية. انطلاقاً من هذه الأهمية النظرية والتطبيقية، تبرز مجموعة من التساؤلات الجوهرية التي يتعين على هذه الدراسة معالجتها:

¹ يوسف وغليسي(2002)، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى اللسانية، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، ص 134.

- ما هي الأبعاد المفاهيمية لمصطلحي التشاكل والتباين في المنظومة السيميائية؟
- ما هي الجذور النظرية لهذين المفهومين في أعمال مرتاض النقدية؟
- كيف تم توظيف هذين المفهومين كآليتين إجرائيتين في التحليل النصي؟
- ما هي الإضافات النوعية التي قدمها مرتاض في تطوير هذين المفهومين وتوظيفهما في قراءة النص الأدبي؟

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الآليات التي يعمل بها هذان المفهومان في تحليل الخطاب الشعري، مع التركيز على كيفية توظيف مرتاض لهما في قراءاته النقدية، كما تسعى إلى تحديد موقع هذين المفهومين في المنظومة السيميائية عموماً، وفي المشروع النقدي لمرتاض على وجه الخصوص.

منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي، الذي يجمع بين رصد المكونات النظرية للمفهومين وتتبع تجلياتهما التطبيقية في النصوص النقدية، كما تستند إلى المقاربة السيميائية في تحليل النماذج الشعرية التي تناولها مرتاض، وذلك للكشف عن كيفية اشتغال آليات التشاكل والتباين في تشكيل الدلالة الشعرية.

أهمية الدراسة:

- تنبع أهمية هذه الدراسة من عدة اعتبارات:
- أهمية المفهومين كأدوات تحليلية في المنهج السيميائي.
- الحاجة إلى الكشف عن الإضافات النوعية التي قدمها النقد الجزائري في هذا المجال.
- أهمية أعمال مرتاض كحلقة وصل بين التراث السيميائي العالمي والتطبيقات النقدية العربية.
- تسهم هذه الدراسة في إثراء النقاش حول الأدوات الإجرائية في المنهج السيميائي، وتوضيح سبل الاستفادة من هذه المفاهيم في تحليل النصوص الأدبية.

ختاماً، فإن هذه الدراسة تسعى إلى تقديم قراءة متكاملة لثنائية التشاكل والتباين في المشروع النقدي لعبد المالك مرتاض، مع التركيز على الجوانب النظرية والتطبيقية لهذين

المفهومين، وذلك في إطار السعي إلى فهم أعمق للآليات التي تحكم اشتغال الخطاب الشعري من المنظور السيميائي.

1- مصطلح التشاكل (ISOTOPIE) وأصوله عند عبد الملك مرتاض:

ورد مصطلح التشاكل في معظم كتب ودراسات عبد الملك مرتاض وفي سعيه إلى تأصيل هذا المصطلح يؤكد بأنه اصطنع في كتابات سابقة له مصطلح التشاكل منها على وجود ما في بعض هذا المصطلح من معنى في البلاغة العربية¹ فيثري عبد الملك مرتاض رؤيته لمصطلح التشاكل بعيدا عن المشرب الغربي بالعودة إلى التراث العربي ويؤكد أن الجاحظ كان يكثر من استعمال هذا المصطلح ويستعمله في معنى قريب من معنى المصطلح السيميائي الغربي حيث كان يطلق عليه لفظ "المشكلة وقد ورد ذلك في أطراف من كتاباته²، فالمشكلة عند الجاحظ هي المطابقة والمائلة فهي تطابق اللفظ للمعنى تطابقا تاما حيث يقول: متى شاكل ... ابقاك الله-ذلك لفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وقفا، ولذلك القدر لفقاً..... محببا إلى النفوس،..... واتصل بالأذهان و التحم بالعقول... وشاع في الافاق ذكره، وعظم في الناس خطره وصار ذلك مادة للعالم الرئيس، ورياضة للمتعلم الریض³." فالجاحظ يؤكد بان المشكلة هي إصابة القدر والمفصل معا لذلك كانت الجمالية والبيان ويعرج بعدها عبد الملك مرتاض على مصطلح التشاكل في المفهوم الغربي فيؤكد أنه في أصل الوضع من جذرين يونانيين احدهما (ISOS) ومعناه

¹ احمد بوجمعة بناني(2017)، المصطلح النقدي المعاصر عند عبد الملك مرتاض، دار الأيام لنشر و التوزيع ص 150.

² عبد الله أبو الهيثم(1982)، إشكالية تحديد الكتابة الإبداعية و قضاياها مجلة الموقف الأدبي، دمشق، مجلة 22.ع131. ص 157.

³ محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي.

يساوي أو مساو واحدهما الآخر (TOPOS) ومعناه المكان، فقول: (SOTOPI) فكأن هذه التركيبة تعني المكان المتساوي أو تساوي المكان.¹

وهو ما يجعل الرؤية الغربية للتشاكل تلتقي مع الرؤية التراثية لهذا المصطلح بالتطابق أو التساوي إلا أن عبد الملك مرتاض ينتصر للرؤية الغربية لهذا المصطلح خاصة ما جاء به (غريماس) الذي يرى أن التشاكل هو: مجموعة متراكمة من المقولات المعنوية (المقومات) التي تجعل قراءة متشكلة للحكاية كما نتجت عن قراءات جزئية للأقوال بعد حل إبهامها هذا الحل نفسه موجة للبحث عن القراءة المنسجمة² وفي هذا التعريف اقتصار على الحكاية وتركيز على التشاكل للتركيب اللغوي.

ما دفع عبد الملك مرتاض ليقر بافتقار المصطلح لخصوصية الأداء وقصور المفهوم، إذ يقر "مرتاض" بأن التشاكل يرمي إلى كل ما استوى من المقومات الظاهرة المعنى والباطنية، والمتجسدة في التعبير أو الصياغة الواردة في نسج الكلام متشابهة أو متماثلة أو متقاربة على نحو ما مورفولوجيا أو نحويا وإيقاعيا أو معنويا بحكم علاقة سياقية تحدد موقع الدلالة.³

فالتشاكل أخذ أشكالا عديدة في منظور عبد الملك مرتاض ناهلا من التراث العربي والمنظور الغربي ليخلق تزاوجا يثري المصطلح ويضفي عليه صبغة التكامل.

1.1- التشاكل إجراء نقدي:

يمثل التشاكل في المشروع النقدي لعبد الملك مرتاض حجر الزاوية في المنهجية التحليلية للنصوص، حيث تطور من مجرد مفهوم نظري إلى نظام تحليلي متكامل تتقاطع

¹ عبد الله أبو الهيف، إشكالية تحديد الكتابة الإبداعية وقضاياها ص 157.

² petit la rousse illustré 1984, librairie la rousse, 1980, p 82.

³ عبد الله أبو الهيف، المصدر السابق، ص 157.

فيه المستويات اللغوية والدلالية والثقافية. ولإدراك أهمية هذا المفهوم، ينبغي تتبع مساره التطوري في أعمال مرتاض الذي صاغ رؤية منهجية متماسكة تجمع بين الأصالة والمعاصرة. في البداية، يستند مرتاض في تأصيله لمفهوم التشاكل إلى التراث السيميائي العالمي، مع تركيز خاص على أعمال غريماس الذي يعده المؤسس الحقيقي لهذا المفهوم كأداة تحليلية، إلا أن مرتاض لا يكتفي بالنقل الحرفي، بل يعمل على إعادة صياغة المفهوم بما يتلاءم مع الخصوصية الثقافية واللغوية للنص العربي، ففي معرض تحليله لسورة الرحمن، لا يقتصر على الكشف عن العلاقات التشاكلية السطحية، بل يتجاوز ذلك إلى إبراز النظام الدلالي العميق الذي يحكم بناء السورة بأكملها.¹

ويتجلى عمق الرؤية المرتاضية في تحليله لقصيدة "شناشيل ابنة الجلي" للسياب، حيث يكشف عن شبكة معقدة من العلاقات التشاكلية التي تربط بين مستويات النص المختلفة، فمن خلال تتبعه للوحدات الشعرية الأربع المكونة للوحة الشعرية الأولى، يبرز ذلك التوازي الدقيق بين بدايات النهايات، مما يخلق ما يمكن تسميته بـ"الدائرة التشاكلية" التي تضمن تماسك النص ووحدته العضوية، إذ لا يقتصر هذا التحليل على الجانب الشكلي، بل يمتد ليكشف عن التوازي الدلالي بين صور الطفولة والضياء، النور والظلام، الماضي والحاضر.²

وإذا انتقلنا إلى تحليل مرتاض لقصيدة "أشجان يمانية"، نجد تطويراً آخر لمفهوم التشاكل، حيث يتحول من أداة وصفية إلى آلية توليدية قادرة على كشف دينامية النص وقدرته على إنتاج الدلالات، فالتشاكل هنا ليس ما جعل علاقات ثابتة بين العناصر، بل هو عملية ديناميكية تسهم في خلق المعنى وتجدهه باستمرار، وهذا ما يفسر تأكيد مرتاض

¹ عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة ص 33.

² عبد المالك مرتاض (2001)، نظام الخطاب القرآني، تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمن، دار هومة، الجزائر، ص 22.

على أن النصوص "قائمة على ما يعرف بالتعلق والتولد والنمو والتناسل"، وهي عبارة تكشف عن رؤية حيوية للعلاقات النصية.¹

ولفهم الأبعاد المختلفة للتشاكل عند مرتاض، يمكن تقسيم تطبيقاته إلى أربعة مستويات رئيسية:

أولاً: التشاكل الصوتي الذي يتجلى في التحليل الدقيق للأنماط الإيقاعية والتنغمات الصوتية، ففي تحليله للنص القرآني، يبرز مرتاض كيف تسهم العلاقات الصوتية في تعزيز الدلالة وإثرائها، حيث يخلق التوازي الصوتي إطاراً موسيقياً يعزز التقابل الدلالي.

ثانياً: التشاكل المعجمي الذي يركز على شبكة العلاقات بين المفردات والعبارات. وهذا المستوى يتجاوز المعجم السطحي إلى الكشف عن الحقول الدلالية الكامنة التي تشكل نظام النص الخفي. ففي تحليل قصيدة السياب، يكشف مرتاض عن حقل دلالي متكامل يتشكل حول ثنائية النور/الظلام، الطفولة/الرغبة، الذكرى/الواقع.

ثالثاً: التشاكل التركيبي الذي يهتم بالتماثلات والاختلافات على مستوى البنية النحوية والجملة. وهذا المستوى يبرز بشكل خاص في تحليل النصوص الشعرية حيث يكتسب البناء التركيبي أهمية جمالية ودلالية خاصة. ففي قصيدة "شناشيل"، يظهر مرتاض كيف أن التكرار التركيبي ليس مجرد زينة بلاغية، بل آلية دلالية تسهم في بناء المعنى. رابعاً: التشاكل الدلالي الذي يمثل المستوى الأعمق في التحليل، حيث يكشف عن الأنظمة المعرفية والثقافية الكامنة خلف النص. وهذا المستوى هو ما يميز تحليلات مرتاض الأكثر نضجاً، حيث يتجاوز الوصف الظاهري إلى التأويل العميق الذي يربط بين النص وسياقاته الثقافية والوجودية.

وإذا أردنا تقييم الإضافة النوعية لمرتاض في تطوير مفهوم التشاكل، يمكن تحديدها في النقاط التالية:

- الانتقال من التشاكل كعلاقة ثنائية إلى كونه شبكة معقدة من العلاقات المتداخلة.
- تطوير أدوات إجرائية دقيقة لتحديد وتصنيف أنواع التشاكل المختلفة.
- ربط التحليل التشاكلي بسياق التلقي وإنتاج الدلالة.
- توظيف التشاكل كجسر بين التحليل النصي والتحليل الثقافي.

— إبراز البعد الديناميكي للتشاكل كآلية لتوليد الدلالة وليس مجرد كشف عنها.

وفي الختام، يمكن القول إن مرتاض قد نجح في تحويل التشاكل من مفهوم نظري مجرد إلى منهج تحليلي متكامل، يجمع بين الدقة العلمية والعمق التأويلي، إذ لا تزال إسهاماته في هذا المجال تشكل مرجعاً أساسياً لكل باحث يرغب في تطبيق المنهج السيميائي على النصوص العربية بمختلف أنواعها.

ويقول مرتاض عن التشاكل في هذه الآلية الكريمة "وذلك أيضا من حيث تلاؤم فعل مضارع مع فعل مضارع وجار ومجرور مع جار ومجرور، واسم منصوب مع اسم منصوب مثله فليس هناك إذا من هذه المنظور أي اختلاف أو تعارض بين هذه العناصر الألسنية"² إنَّ تلاؤم هذه العناصر هو الذي أدى إلى تشاكلها فهو طريقة من طرائق التشاكل، والدليل على ذلك ما يورده مرتاض في قوله: "يمكن قراءة طرفي الكلام في هذا الشاهد قراءة تشاكلية من وجهة تلاؤمية" حيث أن "وضع الحلال مع ما يلائمه وهو الطيب وربط هذين المقومين بقيد يلائمهما أيضا وهو لهما الدال على إتاحة الامتلاك والاحتياز".³

فالتشاكل يتوفر بتوفر التماثل بين المقومات... سببا في توليد علاقات التشاكل، حيث أن كلا منها مرتبط بالأخر فالتشاكل يوجد بمقومات عديدة تستدعيه ليصل مرتاض إلى مفهومه الخاص بالتشاكل بوصفه أداة إجرائية يدرس بها النص الأدبي، الذي يراه ممثلا في التساوي والتوافق والتشابه والتلاؤم فهذا التلاؤم يخدم الدلالة فقد وظف عبد الملك مرتاض التشاكل كآلية للقراءة، وتحليل النصوص ومقاربتها على ضوء القراءة السيميائية التي تعطي النص عدة احتمالات من خلال تبادل الخصائص والمقومات من خلال العلاقات السياقية مما يخدم الدلالة عبر الخطاب الأدبي فيبعد مرتاض التشاكل بمفهومه السيميائي إجراء قادرا على تفكيك النص وفضح دلالاته بشكل أكبر حيث يقول مرتاض: "المقاربة التشاكلية من منظورنا، إجراء قادر على أن يغطي النص بالقراءة الأدبية دون أن يذرفه

¹ عبد المالك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شنا شيل ابنة الجلي، دمشق، 2005، ص 28.

² عبد المالك مرتاض ص 36.

³ المصدر نفسه ص 38.

شيئاً كامناً إلى نبشه، ولا شيئاً خفياً إلا أظهره، ولا شيئاً متوارياً إلا كشفه، ذلك بأن قدرتها على الانصراف إلى فك الرمز اللغوي وتفسير المعنى الكامن فيه، وتحليل النسج المبتوثة بين

ثناياه وهي خصائص قد تجعله شديد القدرة على تناول النص والذهاب إلى أبعد الحدود الممكنة¹.

فالإجراء التشاكلي كفيل بحل طلاسـم النصوص الأدبية وسير أغوارها وفهم كنهها، لذلك امن مرتاض بفاعليته الوظيفية الخادمة للشكل والمضمون معا. خاصة وأن أهم وظيفة يؤديها التشاكل هي خدمة الدلالة من خلال الإحاطة بالرموز اللغوية للنصوص الأدبية.

ومن هنا نخلص إلى أن التشاكل عند عبد الملك مرتاض إجراء نقدي يعمل على تحليل النصوص ودراسـتها دراسة موضوعية. كما أنه يقوم المعنى المتجسد في التعبير الوارد في نسج الكلام عبر شبكة من الاستبدالات والتباينات بحكم علاقة السياق التي تحدد الدلالة لخلق خطاب ادبي منسجم.

2- مصطلح التباين (Contraste) وأصوله عند عبد الملك مرتاض:

ما قلناه في مصطلح التشاكل يسري جملة على مصطلح التباين وأورد أحمد بوجـمة بناني في كتابه - المصطلح النقدي المعاصر عند عبد الملك مرتاض " أن الناقد لم يكن يفصل بينهما ففي جل كتاباته إذ كلما أورد مصطلح التشاكل إلا أورد مصطلح التباين بجانبه، فاتفق في مفهومه للتباين مع ما جاءت به الدراسات الحدائية مع ارتكازه على ما ورد في التراث كما سلف مع مصطلح التشاكل فالتباين كما ورد في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة هو تمايز الأشياء بضدها... وهو اصطلاح. تشكيلي يعني تباين الألوان. يقع الضوء والظل في الصورة / اللوحة / التمثال وهو في الأدب يدل على اشتغال الموقف على حالات متعارضة تؤدي إلى مغايرة تحدّد أبعاد الصراع الدرامي... وهو كذلك أحد قوانين الترابط الأساسية وحالة موضوعين متساويين في الذهن².

ومن هذا الكلام نستشف أن التباين ليس خاصية أدبية فحسب بل هو يسري على الفن والعلوم وسائر المتطلبات الإنسانية، وسرى مفهوم التباين إلى الخطاب الأدبي والنقدي

¹ عبد الملك مرتاض ممارسة العشق بالكتابة سعي لتأسيس نظرية للقراءة الأدبية، مجلة

نزوى، العدد 09، أكتوبر 1996 ص 127.

² أحمد بوجـمة بناني - المصدر نفسه من 154

نتيجة اجتهاد (غريماس) الذي نقله إلى حقل اللسانيات فعبأه بمعنى الاختلاف لا بمعنى التناقض هذا الاختلاف هو ما تجده عند مرتاض إلا أن ناقدنا اختار لنفسه مصطلح التباين إذ هو من منظوره يركز على مفهومي الانتشار والانعصار إذ نجده يجسد التباين من وجهة الاختلاف في الخصائص الشكلية لكل مظاهرها النحوية والمورفولوجية والايقاعية، إفرادية كانت أم تركيبية بالإضافة إلى التباين المعنوي.¹

وفي هذا الصدد يضرب لنا مرتاض مثالا يجسد التباين بين "الرحمن - خلق" إذ يقول: "يجسد هذان الزوجان تباينا مركبا في النحو والايقاع والمورفولوجيا فعلاقة التباين بينهما تقوم على ثلاثة اختلافات، وفي الاختلاف تكمن الدلالة اللغوية على حين أنهما على المستوى التشاكلي لا يجسدان إلا تشاكلا انتشاريا بسيطا على احتمالية كل منهما في أثناء ذلك لانتشار،² وهذا ما ذهب إليه مفتاح الذي يرى أن التباين " أحد المكونات الأساسية لكل ظاهرة إنسانية ومنها اللغوية وقد يكون مختفيا لا يرى إلا من وراء حجاب وقد يكون واضحا كل الوضوح حينما يكون هناك صراع وتوتر بين طرفين أو أطراف متعددة ولكن لا يخلو منه أي وجود إنساني ونشاطه هكذا فإن النموذج المحلل يهيمن على قسمه الأول عنصر الصراع المتجلي تركيبيا في : الخبر/ الانشاء / الجملة الاسمية / الجملة الفعلية، الخطاب / الغيبة، الاثبات / النفي، النهي / الأمر ساعيا لإثراء مفهوم التباين.

انطلاقا مما جاء به (غريماس، وراستيه)³ ليلتقي مع مرتاض الذي تلقف المصطلح وكان أكثر النقاد العرب تنظيرا و تطبيقا على هذا المفهوم من مختلف الجوانب اللغوية لتتسم أعماله بالشمولية في الطرح والدقة في التصويب خاصة وأن مرتاض بارع في توليد

¹ المصدر نفسه من 154 .

² عيد الله أبو هيف، الشمالية تحديد الكتابة الإبداعية وقضاياها مجلة الموقف الأدبي، دمشق مجلد 22 ع 131-1982، ص 169.

³ أحمد بوجمعة بناني، المرجع نفسه ص 155.

دلالات متباينة على المستوى الصوتي والمورفولوجي والتركيبى والدلالي، فالتباين عند مرتاض يدور في أربعة نقاط: مصطلح قديم قريب من مفهوم الاختلاف. (Différence). مقرونا بشيء من الانزياح (أي وحدتين اثنتين أو جملة من الوحدات). مفهوم سيميائي يقوم على إدراك العلاقة الدلالية (الموضوع المحمول). التأثير في المتلقي (خديعة الألفاظ).¹

فالتباين من بين أكثر العناصر المعتمدة في تحليل النصوص سيميائيا لذلك اهتم به مرتاض في درسه النقدي تنظيرا وإجراء خاصة وأن المنهج السيميائي هو الأكثر أهمية في تحليل الخطاب فضلا عن شيعه الواسع وهو ينطلق في عمله من اللساني إذ يتخذ الخطاب موضوعا له بوصفه معطى لغويا وذلك يشترط تفرغ الخطاب - موضع الدرس من مضامينها ولو للحظة ليتمكن من دراستها.²

فمرتاض من النقاد الأوائل ليس في الجزائر فقط بل في الوطن العربي ممن ركبو بحر المناهج النقدية الحديثة فصال وجال بينها وكان إبداعه الأكبر في المنهج السيميائي دون أن نهمل أن مرتاض كان من النقاد الذين نادوا بمزاوجة المناهج ورأى أنه من السذاجة أن يتمكن أحدها من استكناه مكان النص بالاعتماد على منظور أحادي مما جعله يشير إلى التركيب المنهجي في أثناء دراسة النصوص ففي كثير من أعماله نجده يزاوج بين منهج وأكثر فيقول: "وقدد أبنا نحن في تعاملنا مع النصوص الأدبية التي تناولناها بالقراءة التحليلية على السعي إلى المزاوجة أو المثلثة، أو المربعة وربما الخامسة بين طائفة من المستويات باصطناع القراءة المركبة التي لا تجتزئ بإجراء أحادي في تحليل النص".³

لذلك كان حريّا بنا أن نشير إلى هذه النقطة التي أولاها مرتاض أهمية كبيرة في خضم درسنا، لتعامل مرتاض مع - المنهج السيميائي - عموما و- التشاكل والتباين - خصوصا، خاصة وأنه من الإجراءات السيميائية التي لاقت احتضانا واسعا من الدراسة والتحصيل

¹ عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص 24، 23، 22.

² فرحان بدري الحربي، الأسلوبية في النقد العربي الحديث، دراسة في تحليل الخطاب، مجد المؤسسة الجامعية ط 1-1424هـ-2003 ص 51.

³ عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص 6.

والمتابعة متكنا في ذلك على ركيزتين هامتين هما التراث من جهة والنظريات الحديثة من جهة أخرى.

فكانت نظرتة شاملة بعيدة عن الصورية لأنها لم تطل على النصوص الأدبية بالعين الواحدة بل كانت نظرة متمحصنة تمكنت من استكناه خبايا النص فهو لم يرنفسه مجبرا على الالتزام بالمنهاج الحدائيه بكل تفاصيلها وعلى حالاتها بل حرص على الاستفادة من مزاياها وعمل على جبر نقائصها بالتركيب والاضافة إذ يقول "مرتاض" إن تهجين أي منهج أمر ضروري لتنشيط أدواته وتفعيل إجراءاته كما يعد أقدر على العطاء والتخصيب¹، فانطلاقا من كلام مرتاض نصل إلى نتيجة مفادها انعدام المنهج الكامل، فكل منهج مبني على نقاط قوة ونقاط ضعف تجعله بحاجة لمنهج آخر يغطي النقص الكامن به وهنا يعود مرتاض ليؤكد ما أسلفنا ذكره سابقا بقوله "إننا لا نستقيم من حيث المبدأ إلى أي منهج إذا، ونجتهد أثناء الممارسة التطبيقية أن نضيف ما استطعنا إضافته من أصالة الرؤية لمنح العمل الأدبي.

الذي ننجزه شيئا من الشرعية الإبداعية، وشيئا من الدفء الذاتي، معا وللابتعاد عن النظرة الميكانيكية للنص الأدبي"²، فكل ما كان يسعى له مرتاض هو القبض على الدلالة والأثر الجمالي لها دون بعثرة لبنائه.

3- التشاكل والتباين في لغة الشعر لدى السياب: مقارنة سيميائية

في إطار تحليله السيميائي للخطاب الشعري، خصص عبد الملك مرتاض حيزاً مهماً لدراسة التشاكل والتباين في شعر بدر شاكر السياب، معتمداً على قصيدة "شناشيل ابنة الجلي" نموذجاً تطبيقياً، وقد انعكست هذه الدراسة في تحليل إحدى عشرة لوحة شعرية، حيث اتسم منهجه بالدقة والعمق في تتبع آليات الانزياح الدلالي والتركيب. يؤسس مرتاض لرؤيته المنهجية بقوله: "ارتأينا معالجة نص شعري عبر تطوير آليات قرائية جديدة... واخترنا قصيدة 'شناشيل' لما تمثله من خصائص بنيوية تفرض مقارنة سيميائية شاملة"، هذا الاختيار الاستراتيجي يعكس وعياً منهجياً يراعي التوازن بين النظرية

¹ التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص 21.

² عبد الملك مرتاض، المرجع نفسه، ص 19.

والتطبيق، بينما على مستوى التمييز المفاهيمي، يقدم الباحث تصوراً دقيقاً لمصطلحاته التحليلية، فيفرق بين "السيمائي" بوصفه إطاراً نظرياً، و"السيماتياني" باعتباره ممارسة تطبيقية تقوم على ثنائية التشاكل واللاتشاكل (التباين)، ما يضع الأسس لآلية قرائية واضحة المعالم¹.

في تطبيقه العملي على المقطع الأول من القصيدة، يتجلى تفاعل المستويات الصوتية والدلالية بشكل لافت، إذ يمكن إبراز هذا التداخل من خلال النموذج التطبيقي التالي:

واذكر من شتاء القرية النضاح فيه النور.
من خلل السحاب كأنه النغم.
تسرب من ثقوب المعزف ارتعشت له الظلام.
وقد غنى صباحاً قبل... فيم أعد طفلاً كنت أبتسم.

تكشف هذه المقاربة عن كيفية توظيف السياب لآليات التشاكل الصوتي (من خلال التكرار والإيقاع) في توليد تباينات دلالية (بين الضوء والعممة، الماضي والحاضر)، هذا التفاعل بين المتشاكل والمتباين ينتج شبكة دلالية غنية، تتيح للنص الانفتاح على تأويلات متعددة. وتأسيساً على ذلك، تبرز أهمية هذه الثنائية التحليلية (التشاكل/التباين) في الكشف عن الطبقات الدلالية الكامنة في النص الشعري، مما يجعلها أداة منهجية فعالة في مقارنة الخطاب الأدبي بوجه عام، والشعري على وجه الخصوص.

اعتمد مرتاض لغة واصفة شارحة لما قدمه السياب في وحدته الشعرية الأولى من اللوحة الشعرية الأولى إذ يقول: "كما نلاحظ أن الوحدة الشعرية الأولى الخيرية اختتمت بمقوم "النور" والوحدة الشعرية الثالثة - الخيرية - اختتمت بمقوم الظلام ففي التشاكل القائم على النسيج الخبري في الكلام بالقياس إلى الوجدتين الأولى والثالثة، يوجد تباين ينص على اختلاف معنى النور والظلام،² 22 هذه القراءة قدمها مرتاض مدعماً شرحه لتحليله السيميائي للوحدة الشعرية بالتنبيه إلى الدلالة النفسية التي تحملها هذه الوحدة

¹ عبد الملك مرتاض، المرجع نفسه، ص 14.

² عبد الملك مرتاض، المرجع نفسه، ص 32.

خاصة وأن "السياب" لطالما عاش حالة نفسية متأزمة وهو الأمر الذي لا يجدر إغفاله في دراسة الأدب حتى وإن اختلفت مناهج التحليل.

ويؤكد مرتاض أن الماضي لم يتغلب على الحاضر في قول السياب تسربت - ارتعشت - غنى في مقابل أعد أبتسم فذاكرة مرتاض أبت أن تندثر في خضم الذكريات وتغلب الغياب على الحضور فالماضي يحمل الأحلام المنيرة التي أطفأها الحاضر بظلمه وتجبره، ويقول السياب "أذكر" فلعني هذا المقوم معنى انتشار الوعي عبر شريط الدائرة الخلفية لاستعادة شيء كان منسياً، أو شاحباً،¹ 23 إلا أن دلالة "أذكر" حملت التشاكل والتباين معا دون أن

¹ عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص 33.

تحيلنا إلى دلالة المستقبل بل قبضت علينا في جدران الحاضر الذي لا يمكن تجاوزه إلا بالحلم الذي لم يرد على لسان السياب الذي جسدت كلماته معنى الانحصار وذابت فيه. واذكر من شتاء القرية النضاح فيه النور.

هذه الوحدة معبأة دلاليا بمعاني التشاكل والاختلاف فالنور عادة ينتشر في الظلام لمسافة محددة إلا أنه هنا ينتشر إلى أقصى الحدود الممكنة هذه القراءة التي ارتأيت أنها أنسب بهذه الوحدة بعيدا عما ذهب إليه مرتاض في قراءته الثانية التي هي مناسبة في معيار التباين، فانتشارية النور تؤكد انحصارية الظلام، والدالتان معا تحملان معان مكثفة قابلة للتحليل والتنقيب من عديد من الزوايا.

من خلال السحب كأنه النغم عد مرتاض أن السحاب يحمل دلالة الانتشار كونه يغطي حيّزا شاسعا من السماء وهي الدلالة المعنوية المختلفة لدلالة الانتشار المادي (النضاح) فالسحاب هنا يحتمل مقوم التباين بحكم ما فيه من انحصارية آنية إذا ما شاهدناه من زاوية من الأرض إلا أنه يحمل في مقابل ذلك دلالة الانفتاح والانتشار للأمل والحرية. كأنه النغم - قراءة مرتاض لهذه الوحدة حملت التشاكل والتباين على غرار سابقتها فحملت دلالة الانتشار عندما عبر النغم عن أصوات موسيقية تعبر عما يختلج النفس وتداعب مسامعها فالانتشارية الصوتية موجودة اما الدلالة الانحصارية فتكمن في انتهاء النغم. أما الوحدة الشعرية التي أبدع فيها السياب وأبدع في تحليلها وقراءتها مرتاض فهي في قول السياب:

تسرب من ثقب المعزف.

ارتعشت له الظلام.

يرع مرتاض في التحليل والتأويل فاعتبرها " شحنة انتشارية متراكمة تتبجس من السرب، ومن الثقب التي ينتشر منها الضوء، أو الصوت، أو الهواء، ثم المعزف الذي هو آلة مصوتة ينتشر النغم في كل متجه يصب في كل مسمع فالتشاكل إذا يتجسّد في المقومات الثلاثة جميعا"¹ فالعزف ليس مجرد آلة عند مرتاض بل هو مفتاح لقراءة تيمات جسدت

¹ عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص 35.

ألم "السياب" وعبرت عما يختلج في نفسه التي أنهكتها خيبات الألم وكان التشاكل متجسدا في مكوناته التي تحمل الأمل تارة والألم تارة أخرى.

"فلا يمكن أن نتصور وجود ظلام دون أن نتصور معه وجود خير ينتشر عبره من جهة أخرى وفي هذا الظلام بما فيه من قابلية للانتشار ضمن حيز ما، ثم اضطرابه إلى أن ينحصر وينكمش أثناء ذلك في هذا الحيز بحيث لا يعدوه كانتشار الظلام في غرفة نطفئ مصباحها ليلا ثم انحصاره بين جدرانها عبر هذا الانتشار المظلم نفسه، بحيث لا يمكن أن يعدوها إلى الغرفة المجاورة لها إن سلطنا عليها انتشار الضوء تمثل التباين القائم على الانحصار في الوقت ذاته".¹

فهذا الظلام ليس مستمرا وإنما هو لحظي فلا بد أن يأتي النور الذي بدوره يعمل على انكماش الظلام وضمحلالة كذلك هي آمال السياب تنتشر كنور شمس سطعت لتحمل معها فجر يوم جديد مليء بالجديد، هذا الجديد الذي لطالما أنتظره بصبر ولهفة وهو يطل عليه من الثقوب ليخبره أن الغد ليس ببعيد.

أما في الوحدة: قد غنى، صباحا قبل... فيم أعد طفلا كنت أبتسم يقول مرتاض الغناء كالنغم وهو تركيبة لإيقاعه صوتية منسجمة مركبة من أصوات ندية وحنية جميلة مختلفة متشاكلة ومتباينة، كما أنه بحكم خاصيته الصوتية ثم بحكم انتشارية هذا الصوت، تتمثل من سيميائيات مركبة تتألف من الحركة الصوتية الناقدة، أي الشديدة الانتشار"² فالسياب اختار الغناء ليعبر عن نفسه المتشوقة للفرح والاحتفال بغد جديد مغاير للأمس الذي أدمعه، فهو تواق للتغيير، وهذا ما أقره مرتاض حينما اعتبر أن سيميائية النغم مرعبة وناقدة، فدراسته للتشاكل والتباين فتحت الأفق لفهم دلالات خفية ومتخفية في كلمات السياب. فالصباح مثلا ليس هو الفترة الزمنية من النهار التي تسمح للضوء بالانتشار بل هو أيضا قد يحمل مدلولات أخرى مشحونة بالمعاني التي تتيح لنا قراءة التشاكل الوارد بين الصباح والغناء فيقول مرتاض إن الصباح هو فترة النهار، وشبابه وعنفوانه، ففي جمال الزمان وجمال الصوت المنبعث من المكان تشاكل متراكب يتجسد في أن الصباح وما في مدلوله من زمان استكمل زمن الغناء، وفي أن زمن الغناء

¹ عبد الملك مرتاض، المرجع نفسه، ص 36.

² عبد الملك مرتاض، المرجع نفسه، ص 36.

جميل، كما أن زمن الصباح جميل، ثم في أن الغناء انتشار جميل للصوت، والصباح انتشار جميل للنور".¹

تنتهي هذه اللوحة الشعرية ولا تنتهي معها القراءات فدلالاتها مفتوحة وتيماها مكتنزة إلى ما لا نهاية بالتشاكل والتباين الذي يمنحها دائما النفس الجديد عند كل قراءة، فالتحليل مطلوب والتأويل محبوب لإسالة مزيد من الحبر في هذا الباب.

الخاتمة:

يُعدُّ التشاكل من أكثر المفاهيم السيميائية ثراءً وتداولاً في الدراسات النقدية الحديثة، حيث نال حظاً وافراً من التنظير والتطبيق، في حين ظلَّ مفهوم التباين في الظل، لم ينل حقه من البحث والتمحيص، على الرغم من أهميته البالغة في تشكيل الدلالة وتفكيك الخطاب. وقد كشفت دراستنا عن تداخل عميق بين مستويات التشاكل الصوتي والمعجمي والتركيبى والدلالي، مما يجعلها تعبيراً عن رؤى تأويلية متعددة، تختلف باختلاف السياق والخطاب، فقد اعتمد مرتاض في تحليله على آلية التأويل السيميائي، من خلال تفكيك بنية الإيقاع الشعري وصولاً إلى الكشف عن السيميائيات المركّبة التي تتفاعل فيها عناصر التشاكل والتباين، لتنتج دلالاتٍ متعددة، تتراوح بين الظاهر والخفي، كما أنَّ سيميائية النغم المركّب قد فتحت آفاقاً جديدةً لدراسة التشاكل والتباين معاً، وكشفت عن طبقات دلالية خفية، تُضفي على النصّ غنىً تأويلياً لا ينضب.

وهكذا، فإنَّ التداخل الجدلي بين التشاكل والتباين يُشكّل لوحة سيميائية متكاملة، قابلةً لقراءات متعددة، وتأويلات لا حصر لها، تحمل في طياتها أبعاداً دلالية عميقة، تظلُّ قيد الاكتشاف والتفكيك. ومن هنا تبرز أهمية المزج بين المفهومين في التحليل النقدي، لاستنطاق النصّ واستكشاف أبعاده الخفية، مما يُثري عملية التلقي، ويُعمّق فهمنا لآليات اشتغال الخطاب الأدبي.

المصادر والمراجع:

_ القران الكريم

¹ عبد الملك مرتاض، المرجع نفسه، ص 37.

- 1- عبد الله أبو هيف، إشكالية تحديد الكتابة الإبداعية وقضاياها، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، مجلد 22، ع 131، 1982.
- 2- عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص 14.
- 3- احمد بوجمعة بناني، المصطلح النقدي المعاصر عند عبد المالك مرتاض، دار الأيام للنشر والتوزيع، 2017.
- 4- عبد المالك مرتاض ممارسة العشق بالكتابة سعي لتأسيس نظرية للقراءة الأدبية، مجلة نزوى، العدد 09 اكتوبر 1996، 127.
- 5- عبد الملك مرتاض التحليل السيميائي للخطاب الشعري تحليل بالاجراء المستوياتي- لقصيدة شناسيل ابنة الجلبي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.
- 6- عبد الملك مرتاض شعرية القصيدة نظام الخطاب القرآني تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمان دار هومة، الجزائر 2001.
- 7- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناس، محمد مفتاح، المركز الثقافي، العربي
- 8- يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية الى الألسنية، اصدرات رابطة إبداع الثقافية، 2002.
- 9- عبد الملك مرتاض شعرية القصيدة _ قصيدة القراءة_، تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية"، دار المنتخب العربي، 1994.
- 10- petit la rousse illustré 1984, librairie la rousse, 1980.

